

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٥ - سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

ويقال سورة القيمة . وسورة المنفكين . وسورة البرية . وعدد آياتها ثمان وهي مدنية على الأصح . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب : إن الله أمرني أن أقرأ عليك (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا) قال : وسماني لك ، قال : نعم . فبكي . ورواه البخاري ومسلم^(١) . وفي رواية الإمام أحمد^(٢) عن أبي حبة البدرى قال : لما نزلت (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا) قال جبريل : يا رسول الله ! إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيًا . فقال النبي ﷺ لأبي : إن جبريل أمرني أن أقرأك هذه السورة . قال أبي : وقد ذكرت ثم يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فبكي أبي .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩٨ - سورة لم يكن ، ١ - حدثنا

محمد بن بشار ، حديث رقم ١٧٨٤ ، عن أنس .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٨٩ من الجزء الثالث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

[٢] (رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً)

[٣] (فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ)

« لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى جحدوا نبوة النبي صلوات الله عليه بعنادهم ، بعد ما تبينوا الحق منها « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » أى اليهود والنصارى الذين عرفوه وسمعوا أدلته وشاهدوا آياته ، لم يكونوا هم « وَالْمُشْرِكِينَ » أى وثني العرب « مُنْفِكِينَ » أى عن غفلتهم وجهلهم بالحق ، ووقوفهم عند ما قلدوا فيه آباءهم ، لا يعرفون من الحق شيئاً « حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ » أى الحججة القاطعة المثبتة للمدعى ، وهى هنا النبي ﷺ . فجيئته هو الذى أحدث هذه الرجة فيما رسخ من عقائدهم وتمكن من عوائدهم ، حتى أخذوا يحتجون لعنادهم ومناكرتهم بأنه كان شيئاً معروفاً لهم ، يصلون إليه بما كان لديهم ، ولكنه ليس بمستحق أن يتبع . فإن ما هم فيه أجهل وأبدع . ومتابعة الآباء فيه أشهى إلى النفوس وأمتع . تلك البينة التى تعرفهم وجه الحق هى « رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ » أى محمد ﷺ « يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً » وهى صحف القرآن المطهرة من الخلط وحشو المدائسين ، فلهذا تنبعث منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبوه ومنكروه معا « فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ » أى مستقيمة لا عوج فيها . واستقامة الكتب اشتغالها على الحق الذى لا يعيل إلى باطل^(١) (لَا يَأْتِيهِ الْبَسِطُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ

(١) [٤١ / فصلت / ٤٢] .

حَكِيمٍ حَمِيدٍ) والكتب التي في صحف القرآن ومصاحفه ، إما أن تكون هي ماصح من كتب الأولين كموسى وعيسى وغيرها ، مما حكاه الله في كتابه عنهم . فإنه لم يأت منها إلا بما هو قوى سليم . وقد ترك حكاية ما لبس فيه الملبسون إلا أن يكون ذكره لبيان بطلانه . ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته عليه السلام من أهل الكتاب سييلاً إلى إنكار الحق . وإنما فضلوا عليه سواء . أو هي سور القرآن . فإن كل سورة من سوره ، كتاب قويم . فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوى على سور من القرآن هي كتب قيمة . ولما كان لسائل أن يسأل : إذا كان هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، قد انكسروا عن ذلك الظلام المطبق ، وبدا لهم من الحق ما عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، فما بالهم لم يؤمنوا بهذا الحق الذي جاءهم ؟ أجاب الحق تعالى بأن أهل الكتاب قد جاءتهم البينة والحجة القاطعة على الحق الذي لا يختلف وجهه ، بما أوحى الله به إلى أنبيائهم . وكان من حقهم أن يسترشدوا بكتبهم في معرفة سبيله حتى لا ينحرفوا عنه . فإذا عرض لأحدهم شبهة رجع في كشفها إلى العارف بمعاني الكتب . ثم كان عليهم أن يحرصوا على تعلم معانيها وفهم أساليبها ويحافظوا عليها حتى لا يضلهم فيها مضلل . لكن هذه البينة لم تقدم شيئاً فإنهم اختلفوا في التأويل وتفرقوا في المذاهب حتى صار أهل كل مذهب يبطل ما عند أهل المذهب الآخر . وكان ذلك بغيا منهم ، واستمراراً في المراء ، وإصراراً على ما قاد إليه الهوى . وهذا هو قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

[٥] (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ)

«وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ» أى على السنة

أنبيائهم . فهكذا كان شأنهم في النبي ﷺ . جحدوا بينته كما جحدوا بينة أنبيائهم ، بتفرقهم فيها ، وبعدهم بالتفرق عن حقيقتها . فإن كان هذا شأن أهل الكتاب في بينتهم وبينتنا ، فما ظنك بالمشركين ، وهم أعرق في الجهالة وأسلس قياداً للهوى ، منهم؟؟ وقوله تعالى « وَمَا أُمِرُوا » أى والحال أن أهل الكتاب ما أمروا بلسان أنبيائهم وكتبهم « إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى الإذعان والخضوع ، وذلك بتنقيته من أن يشركه فيه شيء . لا واسطة ولا مال ، ولا كرامة ولا جاه « حُنَفَاءَ » أى متبعي إبراهيم عليه السلام ، أو على مثاله . وأصله جمع (حنيف) بمعنى المائل المنحرف . سمي به إبراهيم عليه السلام لأنحرافه عن وثنية الفاس كافة « وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى الإتيان بها ، لإحضار القلب هيبة المعبود وترويضه بالخشوع . لأن تكون مجرد حركات ظاهرة . فإن ذلك ليس من الصلاة في شيء ، البتة « وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ » أى بصرفها في مصارفها التي عينها الله تعالى « وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ » أى الكتب القيمة . أو دين الأمة القيمة المستقيمة . ومعنى الآية : إن أهل الكتاب قد افترقوا ، ولعنت كل فرقة أختها . وكان افتراقهم في العقائد والأحكام وفروع الشريعة ، مع أنهم لم يؤمروا ولم توضع لهم تلك الأحكام إلا لأجل أن يعبدوا الله ويخلصوا له عقائدهم وأعمالهم . فلا يأخذونها إلا عنه مباشرة ، ولا يقلدون أهل الضلال من الأمم الأخرى . وأن يخشعوا لله في صلاتهم ، وإن يصِلُوا عباد الله بركاتهم . فإذا كان هذا هو الأصل الذي يرجع إليه في الأوامر ، فما كان عليهم إلا أن يحملوه نصب أعينهم ، فيردوا إليه كل ما يعرض لهم من المسائل ويحلُّوا به كل ما يعترض أمامهم من المشاكل . ومتى تحكَّم الإخلاص في الأنفس ، تسلط الإِنصاف عليها ، فسادت فيها الوحدة ، ولم تطرق طرقها الفرقة . هذا مانعاه الله من حال أهل الكتاب . فما نقول في حالنا ؟ أمّا ينعم كتابنا الشاهد علينا بسوء أعمالنا ، في افتراقنا في الدين ، وأن صرنا فيه شيعاً ، وملأناه محدثات وبدعاً ؟ بهذا الذى تقدم عرفت أن الذين كفروا هم الذين أنكروا رسالة النبي ﷺ عند دعوتهم إلى قبول ما جاء به . وإن (من) في قوله (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) للتبعض . وأن معنى (لم يكونوا منفكين) :

أى لم يكن وجه الحق لينكشف لهم ، فيقع الزلزال في عقائدهم ، فينفكوا عن الغفلة المحضة التي كانوا فيها، حتى تأتهم البينة . ويجوز أن يكون المراد من (الذين كفروا) والله أعلم ، أولئك الذين جحدوا شيئاً من دين الله تعالى عند ما جاءهم . ولم يفتروا في دليله . أو أعرضوا عنه بعد ما عرفوا دليله سواء كانوا من مشركي العرب أو من أهل الكتاب . وإن آمنوا بعد ذلك وصدقوا . فأراد الله أن يذكر مئته على من آمن من هؤلاء . فبين أن الذين كفروا، أى جحدوا ما أوجب الله على عباده أن يعبدوه عنه من صفاته وشرائعه من أهل الكتاب ومشركي العرب ، لم يكونوا براجمين عن كفرهم وجحدوهم هذا ، حتى يأتهم الرسول فيبين لهم بطلان ما كانوا عليه من الكفر ، فيؤمنوا . فما أعظم فضل الله عليهم في إرسال رسوله إليهم ! وهذا وجه آخر غير الذى قدمناه في معنى الذين كفروا واتفكاهم . وبذلك أو هذا ظهر معنى (حتى) وبطل جميع ما يهذى به كثير من المفسرين الذين أضلهم التقليد ، عن الرأى السديد ، فصعبوا من القرآن سهله ، وحرموا من فهمه أهله . انتهى كلام الإمام نقلناه من أول السورة إلى هنا بالحرف لنفسه ، ولكونه أحسن ما فسرت به . وقاعدتنا التي انتهجناها في هذا التفسير أن نؤثر في معانى آياته ، أحسن ما قيل فيها . فلذلك سميناها (محاسن التأويل) هداانا الله إلى أقوم السبيل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بالله ورسوله محمد ﷺ فجدوا نبوته « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ » أى شر من برأه الله وخلقه . قال الإمام : لأن منكر الحق ، بعد معرفته وقيام الدليل عليه ، منكر في الحقيقة لعقل نفسه ، مهلك لروحه ، جاب الهلاك لغيره .

لطائف

الأولى - دلت هذه الآية والتي قبلها على أن عنوان (المشركين) لا يتناول أهل الكتاب في عرف القرآن ، بل هو خاص بالوثنيين . أعنى من يدينون بالإشراك وتعدد الأرباب ، فأهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - لا يتناولهم ذلك العنوان وإن دخل في عقائدهم الشرك . لأنه دخيل لأصيل . ولذلك ينفرون من وصمة الشرك ، وبسببه حل الفكاح منهم دون الوثنيين . الثانية - قال ابن جرير : العرب لاتهمز البرية . وبترك الهمزة فيها قرأتها قراء الأمصار ، غير شيء يذكر عن نافع بن أبي نعيم . فإنه حكى بعضهم عنه أنه كان يهمزها . وذهب بها إلى قول الله ^(١) (مَنْ قَبِلَ أَنْ نَبْرَأَهَا) وأنها فعيلة من ذلك . وأما الذين لم يهمزوها ، فإن لتركهم الهمز في ذلك وجهين : أحدهما أن يكونوا تركوا الهمز فيها كما تركوه من الملك ، وهو مفعل ، من (الك) أو (لأك) ومن (يرى) و (ترى) و (نرى) ، وهو (تفعل) من رأيت . والآخر أن يكونوا وجهوها إلى أنها فعيلة من (البراء) وهو التراب . حكى عن العرب سماعاً فقيلاً (بفياك البراء) يعنى به التراب . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[٨] (جَزَاءُ وَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَدًا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ و)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله ورسوله محمد ، صلوات الله عليه « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »

أى من بذل النفس في سبيل الجهاد للحق ، وبذل المال في أعمال البر ، مع القيام بفرائض العبادات ، والإخلاص في سائر ضروب المعاملات . لأن إذاعتهم الصحيح ، ووجدانهم لذة معرفة الحق ، ملكت الحق قيادهم . فعملوا الأعمال الصالحة ، قاله الإمام . « أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٢] .

أَلْبَرِيَّةَ « أى أفضل الخليفة . لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه ، قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التي شرفهم الله بها . وبالعامل الصالح ، قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جملة الله قوام الوجود الإنساني ، وهدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ما هُودوا إليه من الخير والسعادة . فمن يكون أفضل منهم ؟ قاله الإمام « جَزَّ أَوْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى بساتين إقامة ، لا ظن فيها ، تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » أى ما كثرين على الدوام ، لا يخرجون عنها ولا يموتون فيها « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ » أى بما أطاعوه في الدنيا ، وعملوا لخلوصهم من عقابه في ذلك « وَرَضُوا عَنْهُ » لأنهم بحسن يقينهم يرتاحون إلى امتثال ما يأمر به في الدنيا . فهم راضون عنه . ثم إذا ذهبوا إلى نعيم الآخرة ، وجدوا من فضل الله ما لا محل للسخط معه ، فهم راضون عن الله في كل حال . أفاده الإمام .

« ذَلِكَ » أى هذا الجزاء الحسن وهذا الرضاء « لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ » أى خاف الله في الدنيا ، في سره وعلايته ، فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه . فإن خشية ملاك السعادة الحقيقية . قال الإمام : أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم الذي وقع ولا يزال يقع فيه العامة من الناس ، بل الخاصة كذلك . وهو أن مجرد الاعتقاد بالورثة ، وتقليد الأبوين ، ومعرفة ظواهر بعض الأحكام ، وأداء بعض العبادات ، كحركات الصلاة وإمساك الصوم ، مجرد هذا لا يكفي في نيل ما أعد الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات . وإن كانت قلوبهم حشوها الحسد والحقد والكبرياء والرياء . وأفواهم ماؤها الكذب والنميمة والافتراء ، وتهمز أعطافهم رياح العجب والخيلاء . وسرايرهم مسكن العبودية والرق للأمرء . بل وإن دون الأمرء . خالية من أقل مراتب الخشوع والإخلاص لرب الأرض والسماء . كلا لا يقالون حسن الجزاء . فإن خشية ربهم لم تحل قلوبهم . ولهذا لم تهذب من نفوسهم . ولا يكون ذلك الجزاء إلا لمن خشى ربه ، وأشعر خوفه قلبه . والله أعلم .